

العلم واليد المؤدجلة الحفيفة الممتدة!

كيف يتم التلاعب بالعلم من أجل مصالح وأجندات وتوجهات الرأسمالية؟

د. عايض بن سعد الدوسري

تحتل الأبحاث والدراسات العلمية والأكاديمية الغربية -عالمياً- بسمعة مرموقة ومكانة عالية، بشكلٍ عامٍ، وذلك لما يتميز به الغرب المعاصر من سمعة مميزة رسخها وجود جامعاتٍ وأكاديمياتٍ ومراكز أبحاثٍ على مستويات عالية ومهنية منهجية في كثيرٍ من الجوانب.

ولكن هذه السمعة المميزة والغالبة لا تعني أن الأمر كله -واقعيًا- على ما يرام، فالأبحاث والدراسات العلمية والأكاديمية التي تصدر في الغرب يعترها ما يعترى مثيلاتها في أي مكان في العالم. ولعل أخطر ما يواجه الأبحاث والدراسات العلمية والأكاديمية الغربية هو: الأدلجة، أو تسييس العلم!

وهذا الخطر نتيجة متوقعة في أي مجتمع رأسمالي، تكون الرأسمالية فيه هي المسيطرة وهي الداعمة والممولة لكثيرٍ من مراكز الأبحاث والدراسات العلمية. فلا غرابة -مثلاً- حينما تخرج دراسات "علميةً طبيّةً" تُقلّل من خطورة التدخين، أو تؤكد أن بعض الأطعمة أشدّ خطرًا من التدخين، حينما تكون شركة عالمية مشهورة بصناعة التبغ، هي الداعمة والممولة لمركزٍ طبيٍّ لأبحاث التدخين!

وإذا ما تركنا التدخين وشركات التبغ جانبًا، وانتقلنا لجانب أهم وأخطر، وهو جانب الدراسات والأبحاث "العلمية والأكاديمية" المتعلقة بالنواحي السلوكية والنفسية والأخلاقية، سنجد أن النتائج المترتبة على مثل هذه الأبحاث -التي عبث بها الأيديولوجيات- في غاية

الخطورة على صحة وسلامة الفرد والمجتمع الأخلاقية والنفسية، وكذلك خطورة على الدين، الذي تتصادم معه مثل تلك النتائج المؤدجلة.

فأخطر ما في تلك الدراسات والأبحاث "العلمية الأكاديمية"، والمساند كثيراً من كثيرٍ من وسائل الإعلام، هو تزويرها للحقائق المتعلقة بأخلاقيات وسلوكيات الإنسان، خصوصاً فيما يتعلق بالجنس والتربية والطفل والمرأة، ومحاولة تطبيع الانحراف -المخالفة للدين والفطرة- لخدمة أجندات سياسية أو اقتصادية، كانت هي الممولة والداعمة لمثل تلك المراكز التي تصدر منها تلك النتائج والدراسات والأبحاث.

وهذا الموضوع المهم كبيرٌ جداً، ويحتاج إلى أبحاثٍ طويلةٍ لدراسته ورصده على الواقع ومتابعة نتائجه. ويصعب أن يكون ذلك في مثل هذه المقالة القصيرة، وإنما هنا سنسلط الضوء على بقعة يسيرة جداً ومحدودة، لتعطينا انطباعاً عن ما يحصل، وأهمية دراسة مثل هذه الموضوعات بشكلٍ جادٍ وعلمي.

فمثلاً، ما يتعلق بالشذوذ الجنسي، وتقديم نتائج "دراسات وأبحاث علمية" مؤدجلة تؤكد أنه مجرد عملية ترجح لأسباب جينية، ثم يردف ذلك بتغطية إعلامية ممنهجة ومكثفة، وفي أحيان كثيرة محرفة، تعطي مثل تلك النتائج ذخماً ولغطاً بين أوساط العامة والمثقفين، وتكرر مثل هذه العمليات مراراً وتكراراً، حتى تتسرب إلى العقل وتشرّبها القلوب، فتتحول إلى اعتقادات وقناعات عقلية.

فمن أشهر الصحفيات في الغرب اللاتي ضلن الرأس العام صحفية اسمها آن لاندر، والتي أخذت تردد -مراراً وتكراراً- هذه العبارة: "إن الرجال الشاذين ولدوا هكذا".

يقول الباحثان الغربيان الدكتور جوزيف نيوكولوسي وليندا نيوكولوسي: "لقد بدأت هذه الخرافة في الانتشار عندما تورطت وسائل الإعلام في ترديد مقتطفات مجتزأة من بعض الأبحاث العلمية".

والصحافة تدرك جيداً طبيعة عقول العامة، بل وكثيرٍ ممن يُسمون مثقفين، وكيف يمكن التلاعب بعقولهم وكيف يمكن أن تنطلي عليهم مثل تلك النتائج المزورة أو المحرفة والمتلاعب بها، مؤكدين عملياً مقولة **فلاديمير لينين (1924م)**، وهو أهم قائد سياسي حين قال يوماً: "الكذبة التي تتكرر كثيراً تصبح حقيقة". وكذلك ما كان يُمارسه **باول جوزف غوبلز**، وزير دعاية هتلر والنازية، الذي قيل أنه قال: "اكذب ثم اكذب ثم اكذب حتى يصدقك الناس". وكانت تلك استراتيجية تعتمد على تكرار الكذب، حتى يتحول إلى حقيقة في أذهان الناس، لكثرة ما يُسمع ويتداول، لأنَّ معيار معظم النَّاس هو قبول ما شاع وانتشر!

ولهذا، ونتيجة الضخ الإعلامي لنتائج بعض الدراسات والأبحاث "العلمية" -المحرفة- حول الشذوذ الجنسي، تشرب كثيرٌ من الناس تلك النتائج كحقائق!

يقول الباحثان الغربيان الدكتور جوزيف نيوكولوسي وليندا نيوكولوسي: "مع الأسف بدأ ملايين الناس حول العالم -منذ تلك اللحظة- ينظرون إلى الشذوذ الجنسي على أنه طبيعة بشرية أو جزء فطري!". وقد أكد الباحثان أنَّ الأبحاث التي تزعم "أنَّ الشواذ ولدوا هكذا"، هي أبحاث مسيسة باعتراف أهم أصحابها، مثل: **سيمون ليفاي!**

وإذا ما تركنا الشذوذ الجنسي جانباً وانتقلنا إلى الإباحية الجنسية، وجدنا الأمر نفسه، وهو دور الأيديولوجيات في تزوير وتلفيق الدراسات والأبحاث لخدمة أهداف مُسبّقة وغير مُعلنة، من أجل تطبيع تلك الانحراف الجنسية بوصفها فطرية نشأت تلقائياً وفطرياً في المجتمع البشري الأول.

فمثلاً: **مارغريت ميد**، عالمة غربية مرموقة إثنولوجية، وكتابها علمي إثنولوجي متخصص يحصد نجاحاً باهراً، في تفسير السلوكيات الأخلاقية، وفي النهاية، هو مجرد ضحية للأسطورة، وقُدِّم ليخدم توجه علماء الجنس الليبراليين!

يقول **سينج تشير كزوف**: "على أساس هذه الخرافة [=شرعية الإباحية الجنسية عند الأقوام والقبائل البدائيين]، التي أصبحت مَعْرِفَةً أكاديمية، ذهبت عالمة الإثنولوجيا **مارغريت ميد** عام 1925م لكي تجري تحقيقاً حول سن المراهقة في ساموا. لقي كتابها المطبوع عام 1928م نجاحاً باهراً، وساهم في توثيق فضائل الإباحية الجنسية. لكن بإمكاننا أن نقدر حالياً، (بفضل دفاترها الميدانية) إلى أي درجة فَسرت معطياتها على ضوء هذه الأسطورة. فقد بقيت **مارغريت ميد** مقتنعة أن الحرية الجنسية كانت، في كل الأوقات، الخيار الثقافي للمجتمعات البولينية. وحقيقة الأمر، كان المثال قد أتى في اللحظة المناسبة لكي يخدم قضية علماء الجنس الليبراليين، مثل: **هافلوك إيس**، وكثيراً غيره من بعده".

وإذا انتقلنا إلى علم النفس، وما يُكتب فيه من أبحاث ودراسات "علمية" تتعلق مثلاً بالتربية والجنس، وبالطفل والمرأة، نجد كذلك اليد الطويلة الخفية، والمعلنة أحياناً، للأيديولوجيات، والتي يُسمها بعضهم (الصواب السياسي)، التي تُحفز وتدعم نوعاً خاصاً من التوجهات داخل الجامعات والمراكز العلمية، وتثبط وتعوق -بل وتحارب- التوجهات الأخرى المخالفة لها، والتي تكون هي العلمية الأكاديمية الحقيقية!

فالأيدلوجيات الرأسماليّة كثيراً ما تهدد وتحارب الأبحاث والدراسات العلميّة الأكاديميّة التي يأتي مخالفةً لتوجهاتها ومصالحها، خصوصاً ما يتعلق بسلوكيات الإنسان وأخلاقياته، تلك الأبحاث العلميّة التي تؤكد الفطرة، وتؤكد ما رسّخه الدين الرباني من قبل.

فقد جاء في مقال بعنوان (عندما تُخفي نتائج البحث العلمي تحت السجادة) منشور في مجلة (مونيتور) لرابطة علم النفس الأمريكيّة (APA): "أن بعضاً من أفضل الدراسات النفسيّة تُعاني في مواجهة (الصواب السياسي)".

تقول **ميريّام جروسمان**، المستشارّة النفسيّة، مُعلقة على هذا المقال: "هذه هي أكبر منظمة محترفة لعلماء النفس في العالم، وعلى مسؤوليتهم، فإنّ مخالفة الصواب السياسي تذكّرة مجانية لما يلي: انقطاع التمويل، التقييمات الهجومية، وصم الباحثين".

وتضرب المستشارّة النفسيّة **ميريّام جروسمان** مثلاً عملياً على ذلك، فتذكر أنّ أحد الباحثين النفسيين "عندما أشارت دراسته إلى عواقب سلبية لدور الرعاية البديلة للأطفال، التي تقدم الرعاية للأطفال أثناء وجود أمهاتهم في العمل، تم وصم الباحث بأنّه عنصر يمارس التمييز على أساس الجنس".

ثم تقول **ميريّام جروسمان**: "آخرون ممن أعلنوا عن نتائج مثيرة للجدل تعرّضوا للحصار والتهديد باتخاذ تدابير قضائية. فالتمويل والدعاية تُمنح إلى الدراسات التي تدعم نتائجها أجندة الصواب السياسي... لا يمكن أن تقف في مواجهة الصواب السياسي أكثر من ذلك".

وحيثما كانت المستشارّة النفسيّة **ميريّام جروسمان** تبحث عن الآثار الضارة للعلاقات الجنسيّة، لحماية الأطفال والمراهقين من التبذل الجنسي الذي يعيشه الغرب، وعن المواد التربوية والتوعويّة الهادفة التي تُنور الطلاب والطالبات في هذا الموضوع، كانت تجد نفسها

محاصرة، وتجد أن مثل تلك المواد التربوية الهادفة والدراسات العلمية التي تبين ضرر الجنس يتم إخفاءها، في مقابل نشر محموم لتشجيع المراهقين على الإباحية الجنسية.

تقول **ميريام جروسمان**: "هل تم إخفاء نتائج الدراسات التي تناولت الكيمياء الحيوية للارتباط العاطفي تحت السجادة؟ يبدو الأمر كذلك حيث أعمل، وعلى مواقع الإنترنت الخاصة بالكليات والجامعات الأخرى التي تصفحتها... لم أجد ما كنتُ أبحثُ عنه. على النقيض، وسط كل المواد الموجهة للمراهقين والشباب، كانت ترانيم (الحقوق الجنسية) و(الجنس الأكثر أمنًا) تتكرر إلى حد الغثيان".